الأدب والنقـد

مدخل وجيز:

سبقت الإشارة (راجع: الانقطاع / الانحطاط) إلى ما أصاب الفكر والفن بشكل عام بعد سقوط بغداد ودولة الموحدين من جمود بسبب غياب خط الإبداع وسيطرة الاجترار والألاعيب البلاغية، وبسبب انقطاع النقاش والبحث الجدي في النقد الأدبي وتحوله إلى ملخصات وشروح بلاغية.

لكن القرن 19 عرف **تيارين ثقافيين يصدران عن المراكز الدينية** ويجريان " في قناتين اثنتين:1- **قناة إسلامية** تربط القاهرة بدمشق وحلب، غير منقطعة عن المراكز الثقافية في العراق، 2- **وقناة مسيحية** تربط حلب بجبال لبنان" *(الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث: سلمى خضراء الجيوسي ص: 33-34)*؛ أي أن الأزهر والمراكز الأخرى (الاسلامية) في سوريا وتركيا والعراق وفَّرت منذ أوائل القرن 19 جوا ثقافيا ملائما خاصة بعد إصلاحات محمد علي وانتشار الطباعة والصحف والمدارس والترجمة، وبجاورها فإن البيئة الثقافية لمسيحيي الشام العرب كانت تدفع إلى التطوير منذ وقت مبكر، علما أن علاقات المسيحيين العرب في الشام بأوروبا انطلقت منذ القرن 18، وهو ما مكّنهم من بدء حركة تطوير رائدة. فالأب اللغوي المعجمي جرمانوس فرحات (ت 1732) مثلا ترك تأثيرا كبيرا بشعره وأبحاثه على الأدب العربي الذي سيلي فترته.

لقد مر بنا كيف تأسست مطبعة بولاق في 1822، وصدرت أول جريدة (الوقائع المصرية) سنة: 1828 وبين عامي 1822 و1848 تمت ترجمة 243 كتابا عن اللغات الأوروبية (*الجيوسي ص: 34*). فإذا أضفنا إلى ذلك البعثات والرحلات والمدارس.. فإنه في **الإمكان اعتبار العقد الثاني من القرن 19 بداية لانطلاقة مهمة لحركة البعث الثقافي والفكري والأدبي العامة.**

وستركز الدرس هنا على: الشعر – النثر – النقد.

أولا: الشعر:

– كانت بغداد والنجف الأشرف بالعراق من أهم البيئات التي ظهرت فيها **بوادر تطوير شعري**، وهو رغم انفصاله عن التطوير ببيئة مصر والشام، إلا أنه تضمن روحا نقديا قوية، كثيرا ما رفضت التصنع في الشعر واتجهت إلى النقد الاجتماعي والسياسي (بسبب الاضطهاد العثماني). لكنه ظل حبيس تقليد القديم، ***فعبد الغنـي الجميل*** (ت1863) الذي قاد ثورة ضد الوالي العثماني، ويقول متحسرا على الوضع (الجيوسي ص: 52):

عَلامَ الإقامـــــةُ في بلـــدةٍ تعَـدّ بها من حميـر النعم
.. فهَلَّا رحلنا إلى غيرهـــا لنَحظَـى بعِـز وعيشٍ أتـم
فلا بــــارك الله في بلـــدة تُعَد الأسُودُ بها كالنَّعَـــم
.. وكم لي على الكَرْخ من وقفة تسيل دموعي بها كالدِّيَم
أسائـل أيـــن الرفاق الكـرام وأين الأعزة أهل الكـرم
فلمْ أَرَ لي مِن مُجيـــبٍ بها، وَأنَّى تجيبُ العِظامُ الرّمم

رغم أن النص مبني على الاستراتيجية نفسها المعتمدة في النصوص القديمة، بل ويتضمن نفس مكونات النصوص العباسية (وتقليدها ومحاكاتها هو هدف في حد ذاته لتجنب تقليد تراث عصر الضعف)، إلا أنه يضمر حساسية مختلفة تشكَّلت من الاحساس بالقهر وبالرغبة في التمرد.

وكذلك ***عبد الغفار الأخرس*** (ت 1873) وما فيه من لهو ونقد. لكنه كثيرا ما بقي ضمن تقاليد عصر الضعف، يقول مثلا في الرثاء:

سقى الله هذا القبرَ من صيّب الحيا وصبّ عليه كلَّ يوم مَصَابه
به حلَّ ذو علم وفهم وحكـــــمة وأمسى إلى الربّ الكريم ذهابُه
ومعـروفٌ الكرخيُّ مذ كان جاره فأشرق فيه ما هناك ترابـــــه
بشهر ربيع الآخر ارتاح أو أمضى وأصبح في أعلى الجنان جنابه
وكان بعلم الطبّ أعـــــــلم عالمٍ وللعَسكر المنصور كان انتسابُه
لقد فاز بعد الموت بالعفو والرضا من الله يُوفى عفـــوَه وثوابُــه
وآبَ إلى جنّات عدنٍ **فأرّخُـــوا** عليٌّ بجَـــنّات الخلود مآبُــه

والدعاء بسقيا القبر، والتنويه بمن حل به، والتأريخ الشعري في الأخير، كلها تقاليد قديمة مكرورة مستعادة من عصر الضعف. وليس ذلك غريبا فهو يصف شعر صديقه بقول:

جِئْتَ يا ابن الفاروق من معجز القـــــول بما لا تَفي به البُلَغاءُ
من بديع التَسْميط ما هو للأبـصـــــــــار نور وللقلوب جلاء
من قصيد حَلَتْ غداة تحلَّتْ فازدهَتْنا بحليها الحسناء
سمّطتها من قبلك النَّاس لكنْ فاتَها في قصورها أشياء
أَنْتَ وفّيتها المحاســـن طرًّا إنَّما شيمة الكرام الوفاء
ولقد خضتَ في الحقيقة بحراً وقفتْ عند حدّه الشعراء
منطق مصقع ولفظ وجيز وكلام كأنَّه الصهبـــاء
مثل روض الحزون لاح عليه رونقٌ من جماله وبهاء
فهي الشهد في الحلاوة لفظاً وهي الماء رقةً والهواء

فنظرته للقصيدة وكيفية إنجازها (البديع، التسميط، التزيين ..) تعيدنا إلى الأسلوب القديم.

لكنه توجه نحو نقد الواقع في كثير من أعماله، يقول مثلا في أسى وسخرية من الأوضاع:

ولما رأيتُ الحيَّ والميْتَ واحداً وفَقْد المعالي في وجودِ الأكابر
بَكيْت على أهل القبور وإنَّما بكيْتُ السَّجايا الغُرَّ بين المقابر

ويقول ***جميل صدقي الزهاوي*** 1863-1936 يصف تبدل الأحوال وانتشار الكذب والزور:

لَقَد كنـــت في درب ببغـــداد ماشياً وَبَغداد فيها للمشاة دروبُ
فَصادَفَت شيخاً قد حنى الدهر ظهرَه له فوق مستن الطَريق دَبيبُ
عليه ثياب رثَّـــــــة غير أنها نِظاف فَلَم تدنس لهن جيوبُ
تدلّ غضُــونٌ في وَسيع جبينه عَلى أنه بَيــن الشيوخ كَئيــبُ

يَسير الهُوَينا وَالجماهير خلفه ... يسبونه وَالشيخ لَيسَ يجيبُ
له وقفة يقوى بها ثم شهقة ... تكادَ لها نفس الشَفيق تذوبُ
فَساءَلت من هَذا فَقالَ مجاوب ... هوَ الحق جاءَ اليوم فهو غَريبُ
فجئت إليه ناصراً ومؤازراً ... وَدَمعي لإشفاقي عليه صَبيبُ
وَقلت له إنا غَريبان ههنا ... وكل غَريب للغريب نَسيبُ

ويقول:

يا أمة الشرق انشطي وأفيقي ... من طول نوم في الغداة عَميقِ
يا شرق أَهلك والجهالة ضلة ... لا يهتدون لمنهج مطروق
يا شرق إن الناس ليس يضرهم ... شيءٌ كمثل سياسة التفريق
يا شرق إن الغرب بعد هجوعه ... دهراً أَفاق وأنت غير مفيق
يا شرق أَنتَ على العقول مضيق ... والغرب مبقيها بلا تضييق
الغرب سباق وأَنت مقصر ... يا شرق نحو مدى يرام سحيق
وَالفضل أَجمعه لمن هو سابق ... والخزيُ كلُّ الخزي للمسبوق
طاروا بأَجنحة الصناعة فاِمتَطوا ... ظهر الرياح مكان ظهر النوق
لا يخدعنْك تزلفٌ يدلي به ... يا شرق إن الغرب غير صديق
وَطَني العراق ورب لَيل ساكت ... ما كنت تسمع فيه غير شهيقي ..
يا نفس قد سَبُوك حين نصحتهم ... هذا جزاء الصادقين فذوقي..

– أما الشام (سوريا ولبنان..) فعرف حيوية قوية. فقد كان بلاط الأمير بشير الشهابي عامرا بالأدباء (ناصيف اليازجي– الشدياق– بطرس كرامة– نقولا الترك) ورغم طغيان التكل على شعر تلك البيئة إلا أنه عرف بعض الحيوية. لكن الأبرز هو ***جبرائيل دلّال*** (1836–1892) وقد جمع ابن أخته الناقد قسطاكي الحمصي ما وجده من آثاره الأدبية في كتاب:السحر الحلال في شعر الدلال. وهو مسيحي واسع الاطلاع، زار كثيرا من البلدان كفرنسا والجزائر وإيطاليا وإسبانيا وبلجيكا وانتهى سكرتيرا للصدر الأعظم باسطنبول ثم فيينا وعاد إلى حلب وسط جدل كبير حوله من المتزمتين خاصة من الكنيسة وحوكم بسبب قصيدته (***العرش والهيكل***) فسجن ومات في سجنه بعد شكوى القسيسين من نقده لهم فيها، واعتبره البعض أول شهيد عربي للحرية في العصر الحديث (*الجيوسي ص: 55*).

عسرت لك الأيام في تجريبها ... وسرت بك الأوهام إذ تجري بها
فإلامَ تُعرِضُ ناسيا ذِكرَ البِلى ... وعَلامَ تُغريك الحياة بطيبها؟
واللِّمَّة الشَّمطاء تُنذرُ بالفَنا ... وتُشيب صفوَ صفائنا بمشيبها
ولَّى الشباب وأَخلقَتْ أثوابُه ... وَاحَسْرتي لنضيرها وقَشِيبها
... جُبتُ البلاد فما نَعِمتُ بشرقها ... وبغربها وشمالها وجنوبهـــا
فبكلِّ قطرٍ شاع لفظُ كُرورِهـــا ... وبكل مِصْرٍ ذاع فرطُ كروبهـــا
... وكذا الملوكُ فليس يُنكَر ما جرى ... فينا من استبدادِها ووثوبِهـــا

أو جَوْر من فتح الممالك عنــوةً وبغى على سكانها وغريبهــا
فبِنصرِهِ خذلَ العلــومَ وأخربَتْ تلك البلادَ جيوشُه بحروبهــا
أودى بأسباب المعيشة بطشُهــا وعلى التجارة سدَّ أصل دروبهــا
ذبح العبادَ على الوهاد بظلــمه وسقى المهاد دماءها عن صَوبهــا
فذَوَتْ جراثيــمُ الفَلاح لعسْفه وبدا لما سُقيتْ جفافُ رطيبهــا
فِلمَ الخضوعُ لذي البغاةِ ومــا لهَا عُجْباً تتيه بتاجِها وقضيبهــا؟
أم كيف نحمل جورها ونُقاد رغــــــــــــماً مرتضين بغمْرها كنجيبِهــا؟
وبما نرى فضَلَتْ على كلِّ الــورى وسمت على تحريرها ولبيبهــا؟
.. هَلْ إنها إلاّ أناسٌ مثلنــــا، وبِنا ومِنَّا العزمُ في تغليبهــا؟!

وقصيدته هذه " **تدور حول ثلاث نقاط: مقاومة سلطان الكهنوت؛ مقاومة استبداد الملوك؛ الدعوة إلى الحكم الجمهوري**" [*ينظر: المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر 1840- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء،ترجمة 1281]* بالفعل لقد قام بتحوير البداية التقليدية من مطلع غزلي إلى مطلع يبقي على المكونات التقليدية لكنه يحولها معنى وصياغة إلى بؤرة النص المتمثلة أساسا في نقد أوضاع العصر لاسيما الوضع السياسي والاجتماعي.

ويبدو أن فكرة رفضه لواقعه المرير قد ولد لديه يأسا نقرأه في عدد من أشعاره؛ .. في طريقه بإسبانيا زار آثار المسلمين في الأندلس، ثم عاد إلى مرسيليا فماتت زوجته إثر مرض، فرثاها بقوله :

لي حالة يكتمها تجلُّــــــدي إظهارها يصدع قلب الجلمد
قد شرّد الغم جنــاني بالأسى وقيَّــد الهَـم لساني ويدي
فباطنٌ تبكِــي له أحبتي وظاهرٌ تضحك منه حسّدي
وما جرى نفى الكرى وفي الورى بعد الذرى عدت أرى في (الوبد)
في محنتي وفكرتي ولوعتي تجلدي تسهدي تنهدي
وهمتي تأبى الخمول فترى الجــــــــدّ مقيمي والقضاء مقعدي
على شبابي والبلاء والفنا واحسرتي واحزني واكمدي

وفي مصر كان ***محمود صفوت الساعاتي*** (1825–1880) أحد مشاهير شعراء القرن 19 رغم عنايته بالمدح وتقليد المتنبي مع الإكثار من ظواهر عصر الضعف كالأحاجي والدعابات..

إذا وردت بي العيس مورد حاجر رعت في خضيب بين تلك المحاجر
وحلت من البيت المحرم في حمى نحط به الأوزار عن كل زائر
هنالك لا أرضى سوى أرض معشر لهم يعتري شطري فيعتز سائري
لهم قصبات السبق من قبل يعرب إلى المجد والعلياء من قبل عابر
إذا ماج بي بحر البديهة في الدجى فمدح بني الزهراء مثل الزواهر
بهم يهتدي فكري الى ذكر حمدهم على انه فرض على كل ذاكر
ولي في معاليهم مدائح ناظم له من أياديهم منائح ناثر

إذا لم أكن اثني عليهم فأنني كمن قال باستحلال ترك الشعائر

وقد خاض الساعتي في مثل هذا النوع من النظم وخصوصا في قصيدة طويلة في مدح الرسول (ﷺ) على طريقة البديعيات التقليدية (أي كل بيت بنوع من أنواع البديع وبلغت عنده 150 نوعا) عارض بها البردة، ومطلعها:

سفح الدموع لذكر السفح والعلم أبدي البراعة في استهلاله بدم

ويقول في مدح الخديوي سعيداً وقد عزم على زيارة قبر الرسول (ﷺ):

ملأت قلوب العرب رعباً فما دروا بعثت لهم بالكتب أم بالكتائب

تركتهُم في أمرهم بين صادق وآخر في تيهٍ من الظن كاذب..

و***يعد علي أبو النصر*** (1800–1880) من أشهر شعراء البلاط آنذاك ولذلك كان المدح أكثر شعره، ورغم ذلك نقرأ له في شعر يصف فيه وطنه مصر:

أبدًا تشوقني لمصر ظلالُـها ويطوف بي مهما رحلت خياله

ولنيلها أصبو وعذري واضح عَذُبَـت مناهلُـها وراق زلالها

هي منتهى أملي وأقصى بغيتي هي قبلتي والواجب استقباله

ولطالما سرحت فيها ناظري وحلت إلى سهولها وجبالها

وجمعت بين رياضها وحياضها وسرت إلى جنوبها وشمالها

أرض تمدُّ المستفيد عوارفا تسدى النوال يمينها وشمالها

بلد بها وطني فلا لأبغي بها بدلا ولو بعدت وعز وصالها..

وهذا الشعر أقرب إلى وطنيات الشعر الحديث الذي تلى عصر النهضة فهو يعد من بوادره.

لكن ***محمد عثمان جلال*** (1838–1898) طرق موضوعات مختلفة وجديدة نسبيا، فقد امتاز بالظرف وروح النقد، وبترجمة عدة أعمال مسرحية وشعرية وقصصية لشعراء فرنسيين. وقد يكون أبرزه الخرافات على لسان الحيوان *Fables* التي جمعها في كتاب (*العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ*) ترجم فيها قصص الشاعر الفرنسي لافونتين *Lafontaine* (1621–1695) ومنها قوله تحت عنوان (صاحب الدجاجة):

كان البخيلُ عنـــده دجاجـــه تكفيه طول الدهر شر الحاجه

فى كل يوم مر تعطيه العجب وهى تبيض بيضة من الذهب

فظَـنَّ يوماً أن فيـــها كنـــزا وأنه يَـــــزداد منه عِـــــــزا

فقَبَض الدجاجـــة المسكينـه وكان فى يمينِـــــــــه سكينه

وشقها نصفين من غفلتـــه إذ هى كالدجاج فى حضرته

ولم يجـــد كنزاً ولا لقِيَّـــه بل رمَّـــةً فى حُجرةٍ مَرمِـــيه

فقال : لا شك بأن الطمعا ضيع للانسان ما قد جمعا.

ولا ننسى أن شوقي تابعه بعد ذلك ونظم عدة قصص على لسان الحيوان.

ومن أبرز هم أيضا إسماعيل صبري (1854–1923) وقد نال اليسانس في الحقوق بفرنسا وتولى عدة مناصب فكان أول نائب عام مصري كما عرف بتأييده للحركة الوطنية ودعمها. يقول مثلا عند مقتل أحد آباء كنيسة قبطية:

مَعشَرَ القِبطِ يا بَني مِصرَ في السَر.....اءِ قد كُنتُمُ وَفي الضَرّاءِ
قَد فَقَدنا مِنّا ومنكم كَبيراً كان بِالأَمسِ زينةَ الكُبراءِ
فَأَقَمنا عليه في كلِّ نـــادٍ مَأتَماً داوِياً بصَوتِ البُكاءِ
وَمَزَجنا دُموعَنا بِدُمـــوعٍ بَذَلَتها عُيونُكم عن سَخاءِ
وَرَأَينا فَتكَ الرَزيئـةِ بِالعَقـــلِ وَفِعلَ المصابِ بِالعُقلاءِ
باركَ اللهُ فيكُـم أَنتُمُ النا.....سُ وفاءً إن عُدَّ أهلُ الوَفاءِ
أَدمُعٌ جاوَزَت مدى كل حُزنٍ وَتخطَّت حُدودَ كلِّ عزاءِ
وعَديـــدٌ وَراءَ كلِّ خيالٍ وَعويلٌ في إثرِ كلِّ هناءِ
لو بَلَغتُم على النجومِ صُعوداً لاتَّهَمتُم كواكِبَ الجَوزاءِ
عُذرُكُم أنَّ بُطرُساً كان في مِصـــرَ كبيرا في الفَضلِ جمَّ العلاءِ
خَفِّفوا من صياحِكُم ليس في مِصـــرَ لأَبناءِ مِصرَ من أعداءِ
دينُ عيسى فيكُم ودينُ أخيهِ أحمدٍ يَأمُرانِنا بِالإخاءِ
وَيحَكُم ما كذا تكون النَصارى راقِبوا اللهَ باريءَ العذراءِ
مِصرُ أنتُم ونحن إلّا إذا قا .....مت بِتَفريقِنا دَواعي الشَقاءِ
مِصرُ ملكٌ لنا إذا ما تَماسَكـــــنا وَإلّا فَمصرُ لِلغُرَباءِ
لا تُطيعوا منّا ومِنكم أناساً بَذَروا بَينَنا بُذورَ الجَفاءِ
لا تُوَلّوا وُجوهَكُم شَطرَ مَن عَكَّـــرَ ما في قُلوبِنا من صَفاءِ
إنَّ دينَ المَسيحِ يَأمُرُ بِالعُر..... فِ وَيَنهى عن خُطَّةِ الجُهلاءِ
لا يَكُن بَعضُنا لِبَعضٍ عدُوّاً لعنَ اللهُ مُستَبيحي العِداءِ
أَيُّها القاتلُ اِشرَبِ الموتَ كأساً في نَضير الصِبا وَغضّ الفتاءِ
لو مَلَكنا شَيئا أَشَدُّ من القَتـــــلِ جَزاءً لَنِلتَه من جَزاءِ

ويمكن أيذكر شعراء آخرون في عدة دول عربية الجزائر كالشوكاني (1760–1834) في اليمن، عمر بن قدور الجزائري (1886–1930) المغرب محمد غريط (1880–1949) تونس محمد قبادو (1815–1871) .
لكن المتميز بينهم يبقى ***محمود سامي البارودي*** (1838–1904).